سلسلة لباب التربية ③

هدي السلف الصالح في التربية

وسائل عملية

أول التدبر

تأليف

د. طالب بن عمر بن حامد الكثيري

بسم الله الرحمن الرحيم

أهميَّة علم التَّفسير(١):

علم التَّفسير أجلُّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبُّها إلى الله، لأنَّ:

١- الله أمر بتدبُّر كتابه، والتَّفكُّر في معانيه، والاهتداء بآياته.

٢- وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وجعلهم في أعلىٰ المراتب.

٣- وبه يتحقَّق للعبد حياةٌ سعيدةٌ، زاخرةٌ بالهدىٰ والخير والرحمة، مع ما يُدَّخر له من ثواب الباقيات الصَّالحات.

فعلينا أنْ نعظِّم كتاب الله، ونَعلَم أنَّه خطابٌ من عالم الغيب والشَّهادة، وجِّه إلينا، وأُمرنا بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه، وأنَّ فيه تبيان كلِّ شيءٍ، وأنَّه كفيلٌ بجميع المصالح، مبيِّنٌ لها، حاثٌّ عليها، زاجرٌ عن المضارِّ كلِّها، فكيف نتدبَّره ونتدارسه ؟.

القاعدة الأولى: معرفة حدود اللفظة بدلالة المطابقة، ثمَّ معرفة ما يندرج تحتها من أفرادٍ بدلالة التَّضمن:

فتتعرَّف علىٰ معنىٰ اللَّفظة، وما يدخل فيه وما لا يدخل، قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إنِّي لأعجب ممَّن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله؛ كيف يلتذُّ بقراءته ! »؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله أصلَ كلِّ الخير، والجهلُ بذلك أصلَ كلِّ الخسران، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [سورة البقرة:٢٣٠].

---

(١) راجع للاستفادة الأصل: عشر قواعدٍ لتدبُّر القرآن، وأصلها مستفادٌ من رسالة القواعد الحسان في تفسير القرآن، للسعديِّ.

ثم تتفكَّر في أفراد ما يدخل في معناها، وعمومه، ومن قواعد العموم:

أ- الألف واللام الدَّاخلة علىٰ الأوصاف:

- كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة:٣٢]، فتتفكَّر في أفراد علمه سبحانه، فهو يعلم الماضي، والحاضر، والمستقبل، ويعلم من حاضرك: ما يحدث حولك، وفي نفسك، ويعلم من نفسك: أفعالك وأقوالك وخطرات قلبك، ويعلم من خطرات قلبك: ما قصدتَ لمَّا فعلتَ، وما فكَّرتَ لمَّا تذكَّرتَ... فيزداد إيمان القلب.

- وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [سورة المائدة:٢]، ومن التَّعاون علىٰ البرِّ: التَّذكير بالصَّلاة، وإقامة مشاريع لرفع الأذىٰ عن الطَّريق، وفتح مساهماتٍ لعون ذوي الاحتياجات الخاصَّة ...، ومن التَّعاون علىٰ التَّقوىٰ: التَّوعية بخطر ترك الزَّكاة، والاحتساب علىٰ ترويج المسكرات، والدَّورات التَّأهيلية للتَّائبين من الفواحش، ومن عدم التَّعاون علىٰ الإثم والعدوان: الحذر من المساهمة فيما يضر الجيران، أو يوقع الغشَّ التِّجاري بالمستهلكين .... فكم ينقصك من ذلك!، وبمثل هذا يزداد إيمان الجوارح.

ب- إذا وقعت النكرة في سياق النَّفي أو النَّهي أو الشرط أو الاستفهام:

- كقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة النساء:٣٦]، وممَّا يدخل في قوله تعالىٰ: (شَيْئًا) ألا تشرك بالله في نياتك، وأفعالك، وأقوالك، ومن ترك شرك الأقوال: تركُ الشِّرك الأكبر والأصغر والخفيِّ، ومن ترك الشِّرك الخفيِّ: هل أنا ممَّن يتلفظ بألفاظ تقدح كمال الله، أو في ذلِّي له، ومنه: هل أقول كذا وكذا ...

- وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة الانفطار:١٩]؛ أي لا يملك ابني أنْ يدفع عني العذاب، ولا أبي، ولا أمِّي، ولا حميمي فلانٌ ولا فلانٌ، لا يملكون شيئًا، لا جمع مالي لفدائي، ولا قوَّة لنصرتي، ولا شفعاء لتخليصي، ولا يتحمَّلون وزري، ولا ....

ج- المفرد المضاف، كقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام:٩٠]؛ فهل أنا ممَّن يقتدي بيوسفَ في عفَّته، لما حضرت أسباب الفاحشة، أو بأيُّوب في صبره لمَّا عظُم بلاؤه، أو موسىٰ في شجاعته، لما واجه الباطل، أو زكريَّا في يقينه لما عجزت الأسباب، أو ....

د- **حذف المتعلِّق المعمول فيه يفيد تعميم المعنىٰ المناسب له**، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [سورة التكاثر:١]، وتتفكَّر في أفراد هذا العموم، فهل ألهاني: التَّكاثر في جمع الأموال عن تذكُّر مصيري وحشري، أم التَّكاثر في الجاه، أم التَّكاثر في الشُّهرة، أم التَّكاثر في الأصدقاء، أم ...

القاعدة الثَّانية: التَّأمل في اللَّفظة من جهة دلالة الالتزام:

كما أنَّ المفسِّر للقرآن يراعي ما دلَّت عليه ألفاظه مطابقةً، وما دخل في ضمنها، كما سبق، فعليه أنْ يراعيَ لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يُعَرِّج في اللَّفظ علىٰ ذكره، وهذه القاعدة تستدعي قوَّة فكرٍ، وحسن تدبُّرٍ.

والطَّريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النَّافع:

- أنْ تفهم ما دلَّ عليه اللَّفظ من المعاني.
- فإذا فهمتها فهمًا جيِّدًا، ففكِّر في الأمور التي تتوقَّف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها .
- وكذلك فكر فيما يترتَّب عليها، وما يتفرَّع عنها، وينبني عليها، وداوم علىٰ هذا التَّفكير، حتَّىٰ تصير لك ملكةٌ جيِّدةٌ.

أ- ومن أمثلتها: في أسماء الله الحسنىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [سورة الفاتحة:٣]، فإنَّها تدلُّ بلفظها علىٰ وصفه بالرَّحمة، وسعة رحمته، وتدلُّ بلازم ما تتوقَّف عليه: علىٰ كمال حياته، وكمال قدرته، وسعة غناه، وإحاطة علمه، لتوقُّف الرَّحمة علىٰ ذلك كلِّه، وتدلُّ بلازم ما يترتَّب عليها: علىٰ أنَّ شرعه نورٌ ورحمةٌ، وأنَّ ما يقدِّره علىٰ عباده رحمةٌ، وأنَّ جزاءه يوم القيامة، سيظهر فيه واسع رحمته سبحانه.

ب- وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [سورة القصص:٥٧]، يدلُّ علىٰ سوء ظنِّهم بالله، وأنَّ الله لا ينصر دينه، ويدلُّ علىٰ أنَّ إيمانهم بالله ضعيفٌ أو معدومٌ، وأنَّ محبَّتهم للدُّنيا أعظم من محبَّتهم للدِّين، وسيترتَّب علىٰ ذلك خذلانهم للدِّين، وتقديم محبَّة وفداء الأوطان علىٰ محبَّة ونصرة الحقِّ ... وأمثلة هذا الأصل واضحةٌ لكلِّ صاحب فكرةٍ حسنةٍ.

القاعدة الثَّالثة: التَّدبر في دلالات هذه الألفاظ، وما دلَّت عليه من الأحكام مع ما خُتِمت به الآية من دلالات أسماء الله الحسنى:

فالأسماء الدَّالة علىٰ العظمة والجلال، تملأ القلب تعظيمًا وإجلالاً لله تعالىٰ، والأسماء الدَّالة علىٰ الرَّحمة والإحسان، تملأ القلب طمعًا في فضل الله، ورجاءً لرَوْحِه ورحمته، والأسماء الدَّالة علىٰ المحبَّة

والكمال، تملأ القلب محبَّةً وتألُّهًا وإنابةً لله تعالىٰ، والأسماء الدَّالة علىٰ سعة علمه، ولطيف خبره، توجب للعبد مراقبة الله تعالىٰ، والحياء منه، فيتعرَّف العبد علىٰ ربِّه من خلال متعلِّقات أسمائه وصفاته بأحكامه، وبتدبيره لشؤون مخلوقاته.

- **ومن أمثلتها**: لما ذكر الله النَّسخ أخبر عن كماله قدرته، وتفرُّده بالمُلك، فقال ﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [سورة البقرة:١٠٦-١٠٧]، وفي هذا ردٌّ علىٰ من أنكر النَّسخ كاليهود، وبيان أنَّ نسخَ الله ما شاء من الآيات، من آثار قدرته، وتمام مُلكه، فإنَّه تعالىٰ يتصرَّف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدَريَّة، وأحكامه الشَّرعيَّة، فلا رادَّ لقضائه، ولا مانعَ لأحكامه .

- وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَۖ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٣٤﴾ [سورة لقمان:٣٤]، فعِلْمُ الله تعالىٰ تعلَّق بكلِّ علمٍ غاب عن خلقه، من مفتاح علم الحياة الدُّنيويَّة، والحياة البرزخيَّة، والحياة الآخرويَّة، وحياة الإنسان، وحياة النَّبات، والحيوان، وهذا كفيلٌ بتوفيق الله، أنْ يزيدك علمًا بالله، وخشيةً له.

قال ابن سعديٍّ: « وهذه الأحوال التي تتَّصف بها القلوب، عند تأمُّل ذلك هي أكمل الأحوال، وأجلُّ وصفٍ يتَّصف به القلب، وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرِّن نفسه عليها، حتىٰ تنجذب نفسه، وروحه، بدواعيه منقادةً راغبةً، وبهذه الأعمال القلبيَّة تكمل الأعمال البدنيَّة ».

القاعدة الرَّابعة: الاجتهاد في عقل مقاصد ضرب الأمثلة في القرآن الكريم:

وهذا النَّوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمَّة؛ كالتَّوحيد، وحال الموحِّد، والشِّرك، وحال أهله، والإخلاص والرِّياء، والمقبول من الأعمال والمردود، والأعمال العامَّة الجليلة، ويقصد بذلك كلِّه توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنَّه يشاهد معانيها رأي العين.

- فقد ضرب الله مثلاً للوحي والعلم الذي أنزله علىٰ رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في عدَّة آياتٍ، بالغيث، والمطر النازل من السَّماء، وقلوب النَّاس بالأراضي والأودية، وبالتَّفكُّر في وجه مناسبة المثل لما ضُرب

له: نجد أنَّ عمل الوحي والعلم في القلوب، كعمل الغيث والمطر في الأرض؛ لأنَّه لا غنىٰ لنا عن الوحي، كما أنَّه لا غنىٰ لنا عن المطر، ولأنَّ قلوب العباد تختلف في انتفاعها بالوحي، كما تختلف الأرض في انتفاعها بالغيث، ولأنَّ القلب يسعد بالوحي، كما يسعد الخلق بالمطر، وهكذا.

- وضرب مثلاً لعمل المشرك بالسَّراب، وبالتَّفكُّر في وجه مناسبة المثل لما ضُرب له: نجد أنَّ السَّراب لا حقيقةَ له، وكذلك عمل المشرك، لا دليل عليه، ولا برهانَ به، ولأنَّه يخذله ولا ينتفع به، ولأنَّه يحثُّه علىٰ السَّعي، ولا يُبَلِّغه ما يرجوه، وهكذا.

القاعدة الخامسة: التأثُّر بمعاني القرآن الكريم؛ اعتقاداً وعملاً:

كان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إذا قرأوا عشر آياتٍ، أو أقلَّ أو أكثر، لم يتجاوزوها، حتَّىٰ يعرفوا معانيها - كما سبق -، ثمَّ يحقِّقوا ما دلَّت عليه من الإيمان والعمل، فلينظر القارئ في موضوع الآية:

أ- **فإنْ كانت من آيات الأخبار؛ فليؤمن:**

- بما احتوت عليه من العقائد والأخبار.

- وليطبِّقها علىٰ جميع ما يشهده من الحوادث، والوقائع الواقعة عليه، أو علىٰ غيره.

قال ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والذي نفسي بيده إنَّ حقَّ تلاوته: أنْ يُحِلَّ حلاله، ويُحَرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرِّف الكَلِمَ عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئًا علىٰ غير تأويله».

ب- **وإنْ كانت من آيات الأوامر، والنواهي، والأخلاق؛ فليحاسب نفسه:**

- هل هو قائمٌ بها، أو مخلٌّ بحقوقها ومطلوبها؟.

- وكيف الطَّريق إلىٰ الثَّبات علىٰ الأمور النَّافعة، وتدارك ما نقص منها؟ والتَّخلص من الأمور الضَّارة؟.

قال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ: « إنَّ أحدهم ليقول: لقد قرأتُ القرآن كلَّه فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كلَّه، ما يُرىٰ القرآن له في خلقٍ ولا عملٍ »، وقال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُٱللَّهُ: « إنِّي لأستلقي من الليل علىٰ فراشي، فأتدبَّر القرآن وأَعرِض عملي علىٰ عمل أهل الجنَّة ».

فاحرص علىٰ تطبيق ذلك عند تلاوتك للقرآن، وخصوصًا عند قراءة وردك من قيام الليل، روىٰ الطَّبري بسنده عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كان الرَّجل منا إذا تعلَّم عشر آياتٍ، لم يُجاوزهنَّ حتَّىٰ يعرف معانيهن، والعمل بهن».

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات،،

فهرس الكتاب

أهميَّة علم التَّفسير ٣
القاعدة الأولىٰ: معرفة حدود اللفظة بدلالة المطابقة، ثمَّ معرفة ما يندرج تحتها من أفرادٍ بدلالة التَّضمن. ٣
القاعدة الثَّانية: التَّأمل في اللَّفظة من جهة دلالة الالتزام..... ٥
القاعدة الثَّالثة: التَّدبر في دلالات هذه الألفاظ، وما دلَّت عليه من الأحكام مع ما خُتِمت به الآية من دلالات أسماء الله الحسنىٰ ٥
القاعدة الرَّابعة: الاجتهاد في عقل مقاصد ضرب الأمثلة في القرآن الكريم ٦
القاعدة الخامسة: التأثُّر بمعاني القرآن الكريم؛ اعتقادًا وعملاً ٧
فهرس الكتاب.....٨